

النثر الفني عربي المنشأ

استاذ الادب العربي
بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

للككتور أحمد الحوفي

لست أريد أن أناقش قضية الشعر والنثر وأيهما أسبق ، بل أريد أن أناقش ما ذهب إليه المسيو مرسية من جهل العرب للنثر الفني حتى ظهر عبد الحميد وابن المقفع ، وأن أناقش ما ذهب إليه الدكتور طه حسين من أن نثر عبد الحميد وابن المقفع كان أول نثر فني نشعر في قراخه بمتعة .
وسأتابع في هذه المناقشة النثر الفني بقسميه : خطابة وكتابة منذ الجاهلية الى عصر عبد الحميد وابن المقفع .

ثم تابعه الدكتور طه حسين ، فذهب الى أن الشعر سبق النثر الفني ، ورأى أن مطلع القرن الثاني الهجري هو الذي شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذي شهد نشأة النثر الفني ، وفي رأيه أن أول من أحدث في نفوسنا لذة الكتابة الفنية هو عبد الحميد بن يحيى وعبد الله بن المقفع ، وأن كان قد عاد فأكد أصالة النثر الفني عند العرب ، وأنهم لم يستمروه من غيرهم .

ولست أريد أن أناقش قضية الشعر والنثر وأيهما أسبق ، بل أريد أن أناقش ما ذهب إليه المسيو مرسية من جهل العرب للنثر الفني حتى ظهر عبد الحميد وابن المقفع ، وأن أناقش ما ذهب إليه الدكتور طه حسين من أن نثر عبد الحميد وابن المقفع كان أول نثر فني نشعر في قراخه بمتعة .

وسأتابع في هذه المناقشة النثر الفني بقسميه : خطابة وكتابة منذ الجاهلية الى عصر عبد الحميد وابن المقفع .

في أدبنا العربي ، وفي تاريخنا الاسلامي ، وفي ثقافتنا وحضارتنا وتراثنا بعامه ، في هذا كله قضايا ما زال كثير منها يعوزه البحث والتقصي والتصفية والجلء .

ومن هذه القضايا نشأة النثر الفني .

فقد رأى بعض المستشرقين أن العرب لم يعرفوا النثر الفني معرفة ذاتية ، بل نقلوا طرائقه عن الفرس واليونان .

ومن هؤلاء المسيو مرسية ، إذ رأى أن أول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الاصل ، وذهب الى أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأسجاع الكهان والامثال .

وعلى هذا بأنهم كانوا يعيشون حياة اولية بدائية ، وهي لا تقتضي نثراً فنياً ، لأن النثر الفني لغة العقل والثقافة ، وإنما يلائم هذه الحياة الشعر ، لانه لغة العاطفة والخيال .

ليس من شك في أن العرب قوم نوو لسن ويلاغة

ولكننا ما زلنا فى حاجة الى نصوص نطمئن اليها فى التليل على معرفة العرب للنثر الفنى قبل الاسلام ، لان الشك يخامر ما روى عنهم من خطب ووصايا ورسائل ، وان كان فقدان هذه النصوص التى نطمئن الى صحتها لا ينهض دليلا على جهالتهم بالنثر الفنى .

ومعلوم ان للعرب فى جاهليتهم امثالا كثيرة ، سلم بعضها من النسيان والاعفان ، ويقسى الى ان دون ، وربما كان اقدم مصدر لهذه الامثال المدونة نعرفه اليوم هو كتاب المفضل الضبى المتوفى سنة 178 هـ .

ولسنا نرتاب فى نسبة هذه الامثال الى العصر الجاهلى كما نرتاب فى الخطب والوصايا ، لان فى طبيعة الامثال ما يكفل بقاءها زمنا طويلا ، فعباراتها قصار يسهل حفظها ويقاؤها وتداولها ، والناس كلفون بتريدها والاستشهاد بها ، لانها تمثل تجارب سابقين وآراءهم واحكامهم ولانها مرتبطة باحداث سابقة كثيرا ما يشاهدون نظائر لها ، فسرعان ما يستحضرون التعبير السابق ، ويرددونه فى الحدث الحاضر ، ثم انها تصور الوانا من اخلاق البشر وطباعهم كانت صادقة فى تصويرها حينما قيلت ، ولا تزال صادقة فى تصويرها حينما يتمثل بها مردودها .

ولكن ما علاقة الامثال الجاهلية بالنثر الفنى ؟ .

فى كثير من هذه الامثال صفات ترتفع بها عن اللغة المالوفة فى الحياة المعتادة الى لغة فيها براعة وافنتان .

1 - فهى مرسله فى تعبير مختار المفردات ، محكم الصياغة ، فيه احيانا عناية بالجرس والتوازن والايقاع ، ولهذا نجد فيها سجعا وتمائلا فى عدد الكلمات ، مثل : « اندرعوا الليل ، فانه اخفى للويل » ومثل : « اليوم خمر وغدا امر » ومثل : « رب عجلة تهب ريئا ، ورب فروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيئا » ومثل : « ان البغاث بارضنا يستنسر » ومثل : « تجوع الحرة ولاتاكل بشديبها » ومثل : « عند الصباح يحمد القوم السرى » .

2 - وهى احيانا تعتمد على مجاز او كناية او تشبيه او استعارة ، لتوحى بالمعنى المراد فى ثوب من الخيال ،

وبيان ، وانهم كانوا كلفين بروعة التعبير ، وجمال التعبير ، ورشاقة الاداء ، والتحرر من زلل الكلام وركاكة المقال .

ولقد وصفهم القرآن الكريم بذلك فى قوله تعالى : « ولتعرفنهم فى لحن القول » وفى قوله : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه وهو اذ الخصام » .

وقال انبى صلى الله عليه وسلم لما سمع بعضهم يتكلم مادحا ثم قادحا ، ومعللا لمدحه وقده : « ان من البيان لسحرا » .

ولهذا كانت معجزة النبى من جنس ما تميزوا به ، وهو بلاغة المنطق ، وروعة التعبير ، وساحر البيان .

نعم كان القرآن الكريم هو المعجزة اعظمى فى انبيان العربى ، شدة العرب بافتنانه ، فتظامنوا لبلاغته ، سواء فى ذلك من شرح الله صدورهم للاسلام ، ومن اصروا على الكفر والعناد .

اما الذين اسلموا فقد آمنوا بان القرآن منزل على النبى من عند الله .

واما الذين لم يسلموا فانهم ايقنوا بان القرآن طراز من البلاغة لا طاقة لهم بمثله ، ولكنهم زعموا انه من صنع النبى ، وزعموا انه اوتى مقدرة خارقة ، فاتهموه بانه ساحر وبانه شاعر .

وانا كان القرآن نزوة البيان العربى ، ونزل بلسان عربى كما يصفه الله تعالى ، فانه من الطبيعى ان يكون العرب قبيل الاسلام قد مارسوا النثر الفنى ممارسة اعدتهم لان يخاطبوا بالقرآن ، فان الله تعالى يقول « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » . ثم ان الله تعالى تحداهم فى عبارات قارعة محرجة ان ياتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ولو لم يكن القرآن من جنس بيانهم الذى عرفوه والفوه وتباهاوا به ما تحداهم هذا التحدي ، وما سجل عليهم عجزهم بعد طول الامهال ، قال تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

كقولهم : « كل مجر في الخلا يسر ، لان النبي يجري فرسه وحيدا في الخلا ينخدع بسرعه ، فاذا سابق به غيره تبين له بطؤه وضعفه ، ويضرب هنا المثل في وصف المغرور بما يتوهم في نفسه من ميزات ومواهب او بما يمتلك من اشياء يظن انه وحده المالك لها ، بغير ان يتبين ما عنده بما عند الناس .

وكقولهم في من يتنصل من خلق فيه او من وصف ثابت له ، فيدعى انه طاريء عليه ، كان يكون جبانا فيزعم انه لم يجبن الا لمرض نزل به ، او يكون حقير النشأة فيدعى ان الدهر هو الذي افقده مجده : « قبل النفاس كنت مصفرة ، لان المرأة التي كانت قبل الحمل مهزولة شاحبة تزعم بعد الوضع ان حولها وشحوبها اثر من اثار النفاس .

وكقولهم في وصف من ارتكب عملا قبيحا يستحي منه ، ويريد ان يستخفى من الناس : « جاء كخاصي العير ، لان خصاء العير عمل قبيح شاذ ان صح ان يحدث فانه لا يقوم به الا الحقير .

3 - وقد يعتمد المثل على التشخيص ، اذ يضاف صفات العقلاء على غير العقلاء ، من شعور وادراك وفهم وتمقل ورزانة وتهور ، كقولهم في من يكتم السر : « اكنم من الارض ، كان الارض انسان يسمع سرا ويكتمه .

وكقولهم في وصف البخيل : « ابخل من كلب ، كان الكلب انسان يفهم ويحرص ويدخر ويمنع ويفعل كل ذلك عن روية وتدبير .

وكقولهم في وصف الاحمق : « احمق من رجلة لانها تنبت في مجاري السيل فيقتلها ، كانها صاحبة رأي وارادة واختيار ، وهي التي اختارت لنفسها هذا المكان لتتبت فيه .

- 4 -

فاذا ما انتقلنا الى الخطابة وجدنا العرب يحتفون بها منذ العصر الجاهلي ويفتخرون باجادتها ، ويمدحون بالبراعة فيها ، كقول لبيد مفتخرا :

ومقام ضيق فرجته ببيان ولسان وجدل

وقول قيس بن عاصم المنقري في وصف قومه :

خطباء حين يقوم قائلهم

بيض الوجوه مصاقع لسن

وقول ابي قريودة الطائي في رثاء ابن عمار الطائي ان قاتليه حرموا الناس كرمه العظيم ومنطقه الجميل الاخاذ الذي يشبه الثوب الموشى باليمن :

يا جفنة كازاء الحوض قد هدموا
ومنطقا مثل وشى اليمنة الحبره

لكنهم لم يكونوا يعدون خطبهم مكتوبة ، لان الكتابة كانت نادرة ، وانما كانوا يفكرون في مقالهم ، ويحبرونه ويزينونه ، ثم يسترسلون ، يقول الجاحظ : « كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب اقتدارا عليه ، وثقة بحسن عادة الله عندهم فيه ، وكانوا مع ذلك اذ احتاجوا الى الرأي في تعاضم التدبير ومهمات الامور نلوه في صدورهم ، وقيدوه على انفسهم ، فاذا قومه الثقاف ابرزوه محككا منقحا ومصفي من اللاناس مهذبا .

ومعنى هذا انهم كانوا يعدون احيانا الى الاعداد والترزين والتنميق ، كما كان يفعل كثير من الشعراء .

ثم جاء الاسلام فازدادت الخطابة رفعة وقوة ، وكثرت الخطب المعدة التي تتبين من قراتها مظاهر التأنق والتجويد والترتيب ، سواء اكان الاعداد مكتوبا ام غير مكتوب ، يدل على هذا ان عمر بن الخطاب قال انه كان في يوم السقيفة قد زور - اعد وحبر - كلاما ليقونه ، ولكن ابا بكر استمله وتكلم ، فلم يدع شيئا مما كان عمر يريد ان يقول .

وروي ان عثمان بن عفان صعد المنبر ، فارتج عليه ، فقال : « ان ابا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وانتم الى امام عادل احوج منكم الى امام خطيب وستاتيكم الخطب على وجهها ان شاء الله . »

وهذا النص صريح في ان ابا بكر وعمر كانا يعدان خطبهما ، او بعض خطبهما وفي ان عثمان قد فوجيء وهو غير مستعد ، فوعدهم بأنه سيعد خطبه ، لتجيء على النسق الذي يرضاه ويرضونه .

وروي ان الخوارج طلبوا من عبد الله بن وهب الراسبي - حينما ولوه رياستهم - ان يخطب فيهم ، فقال « وما انا والرأي الفطين ، والكلام القضيب . »

واشتهر واصل بن عطاء بأنه كان يجتنب الراء في

خطبه ، ليخفي لثغته ، وليس لهذا تعليل الا انه كان يعد خطبه ، ويتمهل في اعدادها .

على أن طابع الاعداد والتأنق يتضح في كثير من خطب العصر الاموي ، كخطبة زياد بالبصرة وخطبتي الحجاج بالكوفة والبصرة ، وخطبة عبد الملك بعد مقتل مصعب بن الزبير ، وخطبة ابي حمزة الشاري بالمدينة ، لان هذه الخطب ونظائرها موحدة الموضوع مرتبة الافكار ، بارعة التعبير متزنة الحمل ، محلاة بسجعات لطيفة الوقع معتمدة على الوان من الخيال .

وهي بهذا كله قد استكملت خصائص النثر الفني التي قيل انها جدت فيما بعد على قلم عبد الحميد وابن المقفع .

- 5 -

لم تكن الكتابة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بحاجة الى تنميق واحتفال خاص ، لان الغاية منها مقصورة على تبليغ الفكرة من اقرب طريق .

فلما كان عهد عمر كثرت رسائله ، وبدا في بعضها الاحتفال والتحبير ، كرسالته الى ابي موسى الاشعري في القضاء ، ثم اتضح التنميق اكثر في الرسائل المتبادلة بين علي ومعاوية وبين معاوية وزياد .

ولما مال الامر الى معاوية انشا نديوان الخاتم وديوان الرسائل ، ثم عزيت دواوين الخراج في عهد عبد الملك ، فصارت العربية لغة الدواوين كلها ، وكان يتولها عرب حذقوا العربية كسالم مولى هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد بن يحيى .

ولاشك انه كان لهؤلاء الكتاب من عرب ومستعربين فضل عظيم في النهوض بالكتابة الفنية ، لانهم منقطعون لها ، ولان بقاءهم في الدواوين موصول بمهارتهم وتجويدهم .

ولكن ليس معنى هذا ان النثر الفني لم يعرف الا في رسائل عبد الحميد لان كثيرا ممن كانوا يملون الرسائل او يكتبونها يتخيرون التعبير وينمقونه ، فجاءت رسائلهم بليغة الصياغة طريفة الخيال ، كقول معاوية لزياد :
داما بعد فانك عبد قد كفرت النعمة ، واستدعيت النعمة ،

ولقد كان الشكر اولى بك من الكفر ، وان الشجرة لتضرب بعرقها وتتفرع من اصلها .

لا أم لك ، بل لا اياك ، قد هلكت واهلكت ، وظننت انك تخرج من قبضتي ، ولا ينالك سلطاني ، هيهات ، ما كل نبي لب يصيب رايه ، ولا كل نبي رأي ينصح في مشورته ، امس عبد واليوم امير ، خطة ما ارتقاها مثلك يا ابن سمية .

وكقول زياد في رده على معاوية : « وجدتك كالغريق يفتطيه الموج ، فيتشبث بالطحلب ويتعلق بأرجل الضفادع ، طمعا في الحياة ، فاما سبكي لي ، فلولا حلم بينهاني عنك ، وخوفني ان ادعى سفيها ، لاثرت لك مخازي لا يغسلها الماء ، واما تعبيرك لي بسمية فان كنت ابن سمية فانت ابن حمامة ، واما زعمك انك تختطفني ، فهل رايت بازيا يفزعه صفير القنابر ؟ ام هل سمعت بذئب اكله خروف ؟ » .

وعلى هذا النمط كثير من الرسائل المتبادلة بين علي ومعاوية ، وبين الحجاج وقطرب ، وبين عبد الملك ومحمد بن الحنفية وغيرهم ممن كتبوا او املوا قبل عبد الحميد وابن المقفع .

- 6 -

على أننا نتعمق في التدليل ، ونتبسط في التوضيح ، فنمقد موازنة بين صفات النثر الفني عند عبد الحميد وصفاته في الرسائل التي كتبت قبل ان يخط عبد الحميد سطرًا .

فما لنا نجد ؟

نجد اتفاقا وتشابها في الجوهر ، ولا نجد اختلافا الا في الشكل والمظهر .

وذلك اننا نلاحظ ان عبد الحميد كان يطيل آنا ، ويوجز آنا ، مراعيًا ما يقتضيه المقام ، وما تتطلبه المناسبة ، ولكنه لم يبتدع هذا التنوع ، لان الرسائل التي كتبت قبله كانت تطول احيانا وتقصر احيانا ، مجارة للموضوع ومراعاة للمقام .

ونجد في رسائل عبد الحميد حفاوة ببسط الافكار وتوليد المعاني او تأكيدهما بالترادف ، ولكن قد سبق

نثرا فنيا ، ولا يصح أن يموه به أحد لينفى عن العرب معرفتهم النثر الفني قبل عبد الحميد ، لان الحكم ينبغي أن ينصب على الاصل والبنية والجوهر ، لا على الشكل والحاشية والمظهر ، ولان النثر الفني ما كان ليقتد ميزة ذات قيمة لو أنه خلا من التائق والاطناب في مطالع الرسائل وخواتمها ، وانما كان يفقد خواصه الاصلية لو أنه جاء خلوا من التجويد والتنميق وتوخي الجمال والتاثير .

- 7 -

وانن فقد كان النثر الفني معروفا للعرب قبل عبد الحميد .

وكان العرب يكتبون رسائل فنية قبل ان يكتب عبد الحميد .

ثم جعل هذا النثر الفني يتطور ويترقى على السنة العرب الذين أملاوا ، وعلى اقلام العرب الذين كتبوا ، فلما قاربت الدولة الاموية نهايتها كان هذا النثر قد شارف نضجه ، وكان عبد الحميد اول كاتب في الديوان اشتهر بكتابته ، وذاع صيته ، وظهرت في آثار قلمه خواص من سابقوه ومظاهر شكلية ابتكرها ونسبت اليه . ومعنى هذا أن النثر الفني العربي لم يكن يوناني النشأة ولا فارسي المولد ، بل انه نشأ عريبا خالص العروبة ، كما نشأ الشعر وكما نشأت الخطابة والحوار والامثال .

اما الطابع الفارسي واليوناني فقد تبين في النثر الفني بعد ذلك حينما اتصل العرب بالفرس واليونان ، ونهلوا من ادب الفرس وعلوم اليونان .

الى هذا كثير ممن أملاوا رسائل في العصر الاموي ، ومن كتبوا بانفسهم .

ولقد يسترعى نظرنا أن عبد الحميد يجنح احيانا الى الخيال ليبرز افكاره ، ويجسم عواطفه ، ولكن هذا ليس بجديد ، لان في بعض الرسائل الاموية الوانا من الخيال لا تقل طرافة وجمالا عن اخيلة عبد الحميد ، ان لم يفتها بهاء واصالة ، كما نرى في رسالتي مماوية وزباد ، وكقول قطري للحجاج : « لئن ابرز الله لي صفحتك ، واظهر لي صلعتك ، لتنكرن شعبيك ، ولتعلمن ان مقارعة الابطال ليس كتسطير الامثال » وكقول المهلب بعد انتصاره على الازارقة : « فاعقب الله خير عاقبة ، وجاوز بالنعمة مقدار الامل ، فصاروا بريئة رماحنا ، وضرائب سيوفنا » .

وانا كان عبد الحميد اعتمد على التائق والتجويد ، لانه كاتب مختص بالكتابة فان كثيرا من رسائل العصر اعدما كاتبوها وتائقوا فيها ونمقوها .

على انني لست انسى ان عبد الحميد كان يفصل الجمل ويقطعها متساوية الطول ومتساوية القصر ، ولست انسى انه كان يزينها بقليل من السجع النفي لا استكراه فيه وانه كان يرتب افكاره في كثير مما يكتب ، ولكنني انكر ان هذه الصفات كلها محققة في كثير من رسائل العصر الاموي قبل عبد الحميد .

بقيت بعض مظاهر شكلية تفرد بها عبد الحميد ، كتائقه في البدء والختام ، وتنويعها حسب المقام ، واطالته في البدء بعبارات التحميد والثناء ، ولكن هذا لا يصح أن ينهض ليليا على انه اول من كتب في العربية